الجزء الثاني

ضحكنا في ظروف حزينة

obeikan.com

obeikan.com

هذا الجزء من الكتاب، كما سبق التقديم، هو تشذيب -مع قليل من الإضافات- لحديث ألقيته على زملائي من المعتقلين بسجن كوبر العمومي وهم، طائفة من السياسيين والنقابيين، والناشطين في المجتمع المدني، وذلك لدى احتفالنا بعيد الاستقلال في مطلع يناير ١٩٩٠ م. وهو مكون من قسمين: ملح في حياتي، ومواقف مدهشة.

الفصل الأول

ملح في حياتي

هزمت دولة المهدية عسكريًّا في عام ١٨٩٩م بقوة السلاح الحديث، ولكن كما قال ونستون تشرشل[١] «**وقد مزقنا جسم الأنصار بقوة السلاح الحديث، ولكن لم نهزم روحهم**».. هذه الروح التي لم تُهزم، هي التي هبت فتية من جديد عندما رفع الإمام عبد الرحمن[٢] الراية وولد الجيل المخضرم من عهد المهدية جيلا أول هم آباؤنا، وجئنا بعدهم جيلا ثانيا بعد المهدية.

(١) ونستون تشرشل (٣٠/ ١١/ ١٨٧٤م- ٢٤/ ١/ ١٩٦٥م)- سبق تعريفه في الجزء الأول.

(٢) عبد الرحمن المهدي- الإمام(١٨٨٥-١٩٥٩م) مؤسس حزب الأمة وإمام الأنصار ، والدته السيدة مقبولة، ولد بأم درمان بعد وفاة والده الإمام محمد أحمد المهدي ببضعة أسابيع، حفظ القرآن الكريم باكراً وتربى في كنف خليفة المهدي، انتقل إلى قرية الشكابة بعد موقعة كرري حيث قتل أخواه البشرى والفاضل مع الخليفة شريف بينما جرح هو جرحاً شفي منه، حددت سلطات الاستعمار إقامته في الشكابة لمدة تسع سنوات. ثم سمح له بالرحيل إلى أم درمان. وفي عام ١٩٠٨م سمحت له السلطات بزراعة الأراضي في الجزيرة أبا فعمرها بمعاونة الأنصار وأنشأ مجتمعاً تكافلياً بالجزيرة أبا، بدأ نجمه في البزوغ في العشرينيات فالتف حوله المثقفون ولعب دوراً كبيراً في حركة «مؤتمر الخريجين». أسس صحيفة «حضارة السودان» في عام ١٩١٩م وصحيفة «النيل» في عام ١٩٣٥م. أسس حزب الأمة في عام ١٩٤٥م وعمل على بعث المهدية وتنظيم الأنصار من جديد فأنشأ ما عرف بتنظيم شباب الأنصار، عمل في سبيل استقلال وبذل لأجل ذلك بسخاء.. أنشأ «دائرة المهدي» المؤسسة الاقتصادية التي كان يمول منها نشاطه السياسي والوطني. دفن بأم درمان بقبة المهدي. خلفه على إمامة الأنصار ابنه الصديق المهدي.

وكان بيت المهدي أثناء المهدية عصبة قبائل سودانية؛ لأن الإمام المهدي[1] جعل الرجل الثاني من بعده من أهل الغرب، وجعل الرجل الثالث من بعده من أهل الوسط، وجعل الرجل الرابع من بعده من أهل الشمال، ولعله جعل الرجل الخامس من بعده من أهل الشرق!. وجعل الإمام المهدي لهؤلاء الرجال مسئوليات تتداخل فيها المهام العامة والخاصة حتى قال: إن أسرتي هي أسرة ستة رجال هم أنا وأخواني (محمد وحامد)، والخلفاء الثلاثة (عبد الله[2] وعلي[3] ومحمد

(١) المهدي (١٨٤٣-١٨٨٥م) هو محمد المهدي بن عبد الله بن فحل، ولد بقرية لبب بمدينة دنقلا في شمال السودان، تلقى تعليمه في خلاوي الخرطوم، وكترانج وخلاوي الغبش بربر. ثم التحق بالطريقة السمانية عام ١٨٧١م. في عام ١٨٧٦ أجيز شيخا بها وبدأ حركة إصلاحية في كردفان ووسط السودان. وفي ١٨٨١م «هجمت» عليه المهدية بمهمة «إحياء الكتاب والسنة المقبورين حتى يستقيما». بدأت الدعوة المهدية سرية ثم جهر بها وخاض المهدي والأنصار جهادا ضد الدولة العثمانية ورعاياها الأوربيين انتهى بانتصار الثورة وإقامة الدولة بعد تحرير الخرطوم في ٢٦ يناير ١٨٨٥م. لم يعش المهدي طويلاً بعد ذلك إذ توفي في يونيو ١٨٨٥م، وخلفه الخليفة عبد الله بن السيد محمد.

(٢) الخليفة عبد الله (حوالي ١٨٤٥- ٢٤/ ١١/ ١٨٩٩م) عبد الله بن محمد (الملقب بتور شين لشجاعته) ابن علي الكرار بن موسى بن محمد القطبي الواوي التونسي. والدته أم نعيم، من بنات أم سرة، ببطن الجبارات بقبيلة التعايشة. التقى الشيخ محمد أحمد عام ١٨٨٠م في المسلمية أثناء بناء قبة الشيخ القرشي ود الزين وصار من أخلص أتباعه في المهدية، حيث نال مرتبة (خليفة الصديق). خلف المهدي في حكم الدولة المهدية بعد وفاته. تكالبت على الدولة المطامع الاستعمارية، وهزم جيش المهدية في كرري ٢/ ٩/ ١٨٩٨م، وتوجه الخليفة وقواته ناحية الجنوب الغربي وأقاموا فترة بقدير، ثم أعادوا الكر قاصدين أم درمان بعد حوالي عام، وقطع عليهم جيش الغزاة الطريق، حيث استشهد في معركة أم دبيكرات غرب كوستي، ودفن هناك.

(٣) الخليفة علي ود حلو (حوالي ١٨٤٠- ٢٤/ ١١/ ١٨٩٩م) والده كان شيخ قبيلة دغيم، وقد تولى أخوه الأكبر موسى زعامة القبيلة عقب وفاة والده. طلب العلم منذ صغره وكان تلميذًا للشيخ مضوي في منطقة العيلفون، فأرسله في سبعينيات لقرن التاسع عشر للشيخ محمد أحمد ليدرّس في خلوته بأبا، وكان من أوائل المؤمنين بمهديته. وقد كانت منزلته في المهدية هي خليفة الفاروق. استشهد في معركة أم دبيكرات مع الخليفة عبد الله ودفن هناك.

شريف[1]) وتزوج المهدي من كثير من قبائل السودان وزوجها نساءً من أسرته.

المهدي وأخواه ينتمون للأشراف الحسينيين من ناحية والدهم (السيد عبد الله بن فحل) وجدهم حاج شريف الملقب بأبي العشرة جد المائة صاحب القبب المعروفة الذي كان يعلم القرآن بدنقلا ولهم دماء دنقلاوية نوبية. ومن ناحية أمهم (السيدة زينب بنت نصر) ينتسبون إلى الجعليين عن والدها، وعن جدتها لأمها (خديجة بنت الفكي إبراهيم ساتي) تنتسب للأشراف الحسينيين فهي من نسل الشريف أحمد غلام الله الركابي. والخليفة عبد الله بن السيد محمد ينتسب إلى القطب الواوي التونسي عن والده، وإلى قبيلة التعايشة- بطن الجبارات- عن والدته السيدة أم نعيم. والخليفة علي ود حلو والده كان زعيم قبيلة دغيم ووالدته من قبيلة كنانة، أما الخليفة شريف فقد كان من أقارب المهدي. وقد تصاهر هؤلاء الآباء فيما بينهم وصاهروا قبائل عديدة بفعل مقصود من الإمام المهدي حيث دخلت في الأسرة الدماء من الحلاوين، والفلاتة الفولانيين، والمحس، والدينكا، والفور، والشلك، والكواهلة، والفونج، والشنابلة، والشايقية، والجعليين بمختلف بطونهم، والقراريش، والحسانية، والمسيرية، والحوازمة، والبديرية، والمسلمية، والرزيقات، وغيرهم من القبائل السودانية، كما صاهروا من جنسيات مصرية وحبشية، وتركية.

في هذه العصبة من العشائر والقبائل وقعت نوادر كثيرة كان أهلنا يقصونها

(١) الخليفة شريف (حوالي ١٨٦٨- ١٨٩٩م) محمد شريف بن حامد بن وراق (توفى والده عام ١٩٢٦م)، والدته شوة بنت فحل عمة المهدي عليه السلام. كان من أوائل الملتحقين بالمهدية المؤمنين بها. كان مقامه في المهدية خليفة علي الكرار. استشهد في الشكابة (قرية على النيل الأبيض) حينما هجمت قوة من الجيش المحتل عليهم، وأجريت لهم محاكمة صورية أعدم بعدها رميا بالرصاص هو وابنا المهدي الفاضل والبشرى، وقد حملت جثثهم وقيل: إنها ألقيت في النيل، حتى لا تكون مزارًا، ولا تستخدم في تأجيج معارضة ضد الاحتلال.

علينا، أذكر منها النوادر الآتية:

❖ كان السيد عبد الصمد (أحد أقرباء المهدي) يتقن الختان، ويعتبر طبيبا في المهدية، وعندما أسلم سلاطين باشا[1]، وسمي عبد القادر قام السيد عبد الصمد بختنه، وبعد زوال دولة المهدية جاء سلاطين مع الجيش الاستعماري، وعينه النظام الجديد مفتشا عاما للسودان ومشرفا مباشرا على أسرة المهدي، وخلفائه لمعرفته بهم، وليتمكن من إذلالهم وفي نفسه كثير من الحقد وحب الانتقام ومحاولة «التكفير» عن إسلامه وبينما كان سلاطين يزور الأسرة التقى بالسيد عبد الصمد وكانت له لحية جميلة فأمره بحلقها ووضعه في السجن. بعد أيام زار سلاطين السجن ووجد السيد عبد الصمد (الحليق) في السجن وسخر منه، فقال له السيد عبد الصمد: «الزينتو إنت بيقوم أحسن مما كان، لكن الزينتو أنا ما بيقوم!».

❖ أهل دنقلا حتى الذين هم من أصول عربية استعجموا، وصاروا يتحدثون بالرطانة. إن تاريخ أهل دنقلا من حيث اللسان مدهش جدًّا إذ اشتمل على

(١) سلاطين، رودلف سلاطين (٧ يونيو ١٨٥٧ - ١٩٣٢) نمساوي. عمل في مطلع شبابه بالقاهرة، ثم قرر السفر جنوبا حيث وصل حتى جبال النوبة، ورجع للنمسا. في ١٨٧٨م دعاه تشارلس جورج غردون للانضمام إلى الإدارة في حكومة لسودان، فجاء للخرطوم في يناير ١٩٧٩م. وبعد عامين صار حاكما لدارفور. في ١٨٨٣ أعلن انضمامه للإسلام ليضمن إخلاص المحاربين معه، وحارب قوات المهدية حتى استسلم لها في ديسمبر ١٨٨٣م، وبقي في أسر الأنصار حتى هرب لمصر في ١٨٩٥م وانضم لمجهودات إعادة غزو السودان وكتب كتابه «النار والسيف في السودان». بعد نجاح الغزو عين مفتشًا عامًا للسودان ١٩٠٠م وحتى ١٩١٤م حين قدم استقالته من وظيفته بحكومة السودان، توفي ودفن بمسقط رأسه في ٢ أكتوبر ١٩٣٢م. (كتاب سلاطين عنوانه: Fire and Sword in the Sudan وقد ترجم للعربية عدة ترجمات شامية وسودانية من قبل بعنوان: السيف والنار في السودان، وآخر ترجمة أشرف عليها الأستاذ محمد المصطفى حسن عبد الكريم صوبت هذا الخطأ كما صوبت عشرات الأخطاء في التراجم السابقة، وأظهرت أن بعضها احتوى على الهوى في حذف بعض الجمل بل وحذف صفحات كاملة في التراجم القديمة.

استعجام عم كل أهل الإقليم تقريبًا، ثم استعراب مازال يواصل الانتشار، واستعجم سكان جزائر الأشراف، لذلك كان أهل المهدي الذين لم يهاجروا جنوبًا لا يتحدثون العربية إلا قليلا، وكانت إحدى عمات المهدي من هؤلاء وأرادت إن تقول: إن بنتها قد بلغت سن التكليف الشرعي، فقالت للحاضرات تعبيرًا عاجزًا (فاطمة تدور الرجال)، فضحكت النساء منها ضحكًا عاليًا حتى سمع المهدي الضجة فسأل فروي له ما حدث فضحك وقال لعمته: إذا أردت أن تقولي شيئا أخبريني به بالرطانة ، وسوف أترجم عنك.

❖ كان أحد أهلنا البقارة يصلي فأحدث فقال له أحد أهل العاصمة: يا فلان أنت أحدثت، فانتهره الرجل قائلا: أتتهمني بالحديث في الصلاة يا «...»، ووقعت مشاجرة حتى بلغت الكبار، فاستمع أحدهم للقصة، وأدرك ما وقع من سوء فهم فقال للرجل: يا أبا فلان أنت عفطت (ضرطت)؟ فرد الرجل: «واي(نعم).. أنا ما بحسب العفطين بيقطع الصلاة !» وانتهت المشكلة بعد إزالة سوء الفهم!!.

❖ كنا حتى عام ١٩٥١م نسكن حي العباسية في أم د رمان، وكانت تسكن إلى جوارنا مدرسة جميلة وتزوجها رجل دميم، وكان هذا الحدث محل استنكار أهل الحي، لذلك اجتمع بعضهم، وكتبوا على أوراق كثيرة: (إن الزهور فرائس الحشرات) ونثروا هذه الأوراق في منزل الزوجين الجديدين!!

❖ كان الإمام عبد الرحمن بصدد أن يعقد عقد الزواج لأحد الأنصار ودخل وقت المغرب، فقرر الإمام أن نبدأ بالصلاة ثم العقد، ومن عادة الأنصار أن يقول أحدهم بصوت عال قبل الصلاة: استووا، لذلك عندما تهيأ الناس للصلاة صاح الرجل الذي سيعقد له بأعلى صوته ليقول: استووا ولكنه قال: (صفاح) فقرر الإمام أن يعقد له قبل الصلاة، لإزالة الشاغل من ذهنه وقد كان.

❖ روي لنا في ظروف الحرب العالمية الثانية أن جقود[1] - وهو شاعر قومي سوداني معروف - كان يتعاطف مع دول المحور ككثير من الوطنيين الذين تعاطفوا مع دول المحور نكاية في الإنجليز، وقال أبياتا نصها:

عيونك يا بخيتة كزي مدافع ألمانيا

الهدن دولة النمسا في أقل من ثانية

روسيا تقهقرت وتخاذلت بريطانيا

إيطاليا انزوت وفرنسا أضحت فانية

وحققت معه سلطات الأمن، وهمّ مفتش المركز الإنجليزي بعقابه، ولكن توسط بعض أهل الخير فأمهله ثلاثة أيام ليؤلف فيها شعرًا يناقض ما قاله، فقال جقود: لا حاجة لثلاثة أيام بل ثلاثة دقائق، هات ورقة وقلماً فأعطاه فكتب الآتي:

تسلم يا الفريع الجيتنا من رومانيـــا

شوف يا آخي شوف عاين شلوخها تمانية

كل شلخا يدوخ دولة زي ألمـــانيـــا

قال له المفتش هذه أضعف من تلك. ولكن عفونا عنك!

وبالمناسبة فالشاعر القومي جقود اشتهر بهذا الاسم ومعناه في اللغة العامية النحيف، ويبدو أن اللقب قد أُطلق عليه في صباه أو طفولته وسار حتى آخر أيامه، ولكن الشاعر لما كبر زالت عنه النحافة، وروت لي الوالدة أن جقود كان يأكل خروفًا كاملاً وحده!. وقد طبع ديوانًا بمكتبة البازار، وصدره بصورته

(١) أبو عثمان جقود، من أشهر الشعراء القوميين السودانيين، له ديوان طبعته مكتبة البازار السوداني عام ١٩٢٧م.

الفوتوغرافية وكتب تحتها الأبيات التالية:

أبو عثمان أنا الماشافني ينظر رسمي

عالم في العروض العامي وافر سهمي

فكاهي وما عبوس مازج كلامي ببسمي

ما قـــولك جقود وأنا هذا ظاهر جسمي؟

❖ ورويت لنا قصة بلاغ فتح ضد الشاعر عبد الله البنا[1] أمير شعراء السودان قصة تشبه المحاكمة التي جرت لابنه إدريس[2] في القول الآتي المنسوب إليه:

مما شف سلاحك شاكي

بومـــــك راكي

ما ضليت وما غبيت وما كت شاكي

إيه يا أمـــة إيه الجـاكي

غير كيـــزان بتلـبس كاكي!

وتداولت المحكمة العسكرية الأمر فلم تجد ما تدين به الشاعر! أما قصة الشيخ

---

(١) عبد الله محمد عمر البنا (ولد في ام درمان عام ١٨٩٠م) حفظ القرآن بالخلوة ودرس الكتاب برفاعة ثم دخل كلية غردون والتحق بقسم المعلمين والقضاة، وتخرج معلمًا وعمل بالتدريس. أبوه الشيخ محمد عمر البنا كان شاعرا وقياديا بالمهدية.

(٢) إدريس عبد الله البنا (ولد في ١٩٢٤م) بأم درمان، تخرج في كلية غردون ١٩٤٥م، المعهد العالي للتعليم بالقاهرة، كلية جولد سميث، ماجستير فنون جميلة (جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا ١٩٩٧م)، دكتوراة (آثار) جامعة الخرطوم ٢٠٠١. عمل بالتعليم، عين أول مراقب عام لتلفزيون السودان عام ١٩٦٣م، عمل ناشطًا في حزب الأمة، وكان عضوا بمجلس رأس الدولة عن الحزب ونائب لرئيس المجلس الديمقراطية الثالثة (١٩٨٦-١٩٨٩م).

عبد الله البنا، فهي أنه ألقى قصيدة في تحية العام الهجري ١٣٣٩ هـ، ومطلعها:

يا ذا الهلال عن الدنيا أو الدين حدّث فإن حديثا منك يشفيني[١]

وضمنها أبياتا في الهجاء هي:

والناسُ في القطر أشياءٌ ملفقةٌ فإن تكشّف فعن ضعفٍ وتوهين

فمن غني فقير في مروءتـه

ومن قـوي بضعـف النفس مرهون

ومن طليق حبيس الرأي منقبض

فاعجب لمنطلق في الأرض مسجون

وآخر هـو طوع البطن يبرز في

زي الملـــــوك وأخـلاق البراذين

وهيكل تبعته الناس عن سرف

كالسامـــــري بلا عقـل ولا دين

يحتال بالدين للدنيا ليجمعهـا

سحـتا وتورده في قاع سجين

حيث زعم أحدهم أنه مقصـود بالبيت (وآخـر هـو طـوع الـبطن..الـخ)، ولكـن القاضي الإنجليزي بعـد النظـر في القضيـة قـال للمـدعي: إن الشـاعر لم يـذكر أحـداً ولكنه وزّع قبعات فمن يرى القبعة مناسبة له يلبسها!.

(١) القصيدة من أشهر قصائد الشاعر، منشورة في ديوانه- عبد الله محمد عمر البنا ديوان البنا- الجزء الأول دار جامعة الخرطوم الناشر- الطبعة الثانية ١٩٧٦م- ص ٦٤- ٦٥.

obeikan.com

❖ كان إبراهيم العبادي[1] شاعرًا قوميًا خفيف الظل، ومن نكاته التي أطلقها نكتتان واحدة أطلقها على شخص طويل، والأخرى على قصير، قال عن الطويل: كان فلان واقفا في شارع، وأرادت إحدى الفتيات المحجبات أن تخرج من غرفتها في بيتها المسور بسور مرتفع، ولكن الرجل كان مشرفًا فوق البناء لطوله الفارط، فلم تستطع الفتاة الخروج أمامه، ولما طال الوقت قالت لأمها: يمة قولي للراجل الراكب الجمل داك يمشي، ولا ينزل من جمله عشان أقدر أطلع الحوش!.

أما عن القصير فقال: قال أحدهم وقد رآه واقفًا: لشد ما أطال هذا الرجل الجلوس!.

ومن هجائه لأحدهم وكان طويلاً:

يا منادي نادي لفلان طويل العقلو ملّي وطولو ميل

وكان يستخدم في شعره صوراً كاركاتورية مضحكة، مثلا هجا من سماه «أبو الخشوم» وهو من سكان قرية الرياض بضفة النيل الأبيض الشرقية، فقال:

يا ناس الرياض قد أضحى شوم

الساكن فيهو أبو الخشوم

وشو شبرين غير جضوم

والعجب العجيب وقتين ينوم

شخرة كلاب عاملين هجوم

(١) أحمد بابكر العبادي (١٨٩٤ - يوليو ١٩٨١م) ولد بأم درمان، ودخل خلوة الشيخ الطاهر الشبلي، ثم المدرسة المتوسطة التي لم يكملها ليعمل مع والده في سوق المواشي، والتحق بخلوة الشيخ محمد البدوي. يعتبر من أعمدة الشعر السوداني في زمان الحقيبة.، كما كتب المسرحيات الشعرية.

❖ كان أحد أبناء أمراء المهدية متشاعرًا ويؤلف قصائد في المدح والهجاء، ومدح عددا من أفراد أسرة المهدي والخلفاء، وذات يوم ألف قصيدة في مدح السيد إسحاق محمد الخليفة شريف، والسيد إسحاق شاعر لم تعجبه قصيدة ابن الأمير، فهجاه وسماه خامس الشعراء مضيفا وصف خامس الشعراء للأربعة المعروفين في الأبيات الشهيرة:

الشعراء في الزمان أربعة

شاعر يجري ولا يجري معه

وشاعر يخوض وسط المعمعة

وثالث لا تشتهي أن تسمعه

ورابع لا تستحي أن تصفعه

فأضاف السيد إسحاق:

أما الأمير فضع عليه البردعة

وارفع هرواتك الثقيلة والبعه!

نكات مع بعض الساسة:

أ. كنت في اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة السودانيين في بريطانيا في عام ١٩٥٥م، وزارنا المرحوم السيد إسماعيل الأزهري[1]، وكان رئيسًا للوزراء وأعددنا

(١) إسماعيل الأزهري(١٩٠٠-١٩٦٩م) رئيس وزراء السودان(١٩٥٤-١٩٥٦م). تلقى تعليمه الأوسط بواد مدني، التحق بكلية غردون عام ١٩١٧م ولم يكمل تعليمه بها، عمل بالتدريس في مدرسة عطبرة الوسطي وأمد رمان، ثم ابتعث للدراسة بالجامعة الأمريكية ببيروت وعاد منها عام ١٩٣٠م. عين بكلية غردون، وأسس بها جمعية الآداب والمناظرة. وعندما تكون مؤتمر الخريجين كان=

له احتفالاً واجتماعًا ليخاطبنا، وكنا نريد أن نضغط عليه ليتوجه نحو الاستقلال وتضمن خطابنا الموجه إليه هذا المعني، وقلنا له ضمن معانٍ أخرى إننا عندما هممنا بتزيين المكان لاستقباله سألتنا المشرفة عن المكان أليس لديكم علم لنزين به القاعة؟ فخاطبنا بعبارات لائقة، وأصدر أول كلام صريح بالتوجه نحو الاستقلال قائلاً: سيكون للسودان سيادته وعلمه وعملته! لم يكن هذا الرأي متفقًا عليه في صفوف حزبه، بل حتى أعضاء وفده كان لهم رأي آخر عبر عنه المرحوم الشيخ علي عبد الرحمن متحدثًا عما سماه الاستقلال الاتحادي. لقد كان اللقاء حيا وصاخبا، وبعد أن استمعنا له فتح باب الأسئلة، وتقدمت السيدة حواء البصير[1] رائدة التمريض في السودان بسؤال، قالت: بنات الأسر الكبيرة في السودان يعرضن عن التمريض وهو مهنة ضرورية فهلا شجع الرئيس أزهري أفراد أسرته للدخول في التمريض وحث الأسر الأخرى على ذلك؟ وأجاب السيد عبد الفتاح المغربي -الملحق الثقافي آنذاك- بتعليق قائلاً: إن إعراض بنات الأسر الكبيرة عن التمريض جزء من التخلف الاجتماعي سوف يزول الإعراض عندما يزول التخلف الاجتماعي، فأنا مثلاً -والحديث للمغربي- زوجتي الإنجليزية كانت ممرضة، وقد دخلت مجال

=من أبرز قياداته، تزعم حزب الأشقاء داخل المؤتمر الذي تبنى في وقت لاحق من تكوينه دعوة الاتحاد مع مصر في مواجهة الدعوة لاستقلال السودان التي نادي بها حزب الأمة. تولى رئاسة الحزب الوطني الاتحادي عندما توحدت الأحزاب الاتحادية تحته. في عام ١٩٥٤م انتخب رئيساً للوزراء من داخل البرلمان، وتحت تأثير الحركة الاستقلالية تقدم باقتراح إعلان الاستقلال من داخل البرلمان فأجيز بالإجماع. تولى منصب رئاسة مجلس السيادة بعد قيام ثورة أكتوبر ١٩٦٤م إبان الديمقراطية الثانية. اعتقل عند قيام انقلاب مايو ١٩٦٩م بسجن كوبر وعند اشتداد مرضه نقل إلى المستشفى إلى أن توفي بها.

(١) حواء علي البصير – خريجة المدرسة الأفريقية بالخرطوم بحري كما أرسلت في بعثات تدريبية للمملكة المتحدة في فترات مختلفة، وعملت على تطوير فن التمريض والتوليد في البلاد- توفيت في ثمانينيات القرن العشرين.

التمريض مع أنها تلتقي في أحد جدودها بالعائلة المالكة البريطانية. وكان بين أزهري وعبد الفتاح مداعبات فهم أبناء دفعة واحدة، وكان عبد الفتاح كثير الفخر حتى أنه كتب ذات يوم مقالاً بعنوان: «لماذا لا أكون ملكًا؟». فأراد الأزهري أن يصب ماءً بارداً على دعوى عبد الفتاح بأن زوجته تجتمع مع الأسرة المالكة البريطانية في أحد جدودها، لذلك عندما قال عبد الفتاح ما قاله بخصوص جد زوجته المذكور، قام أزهري وقال: بالمناسبة الجد المقصود اسمه آدم!.

ب. أثناء دراستي في بريطانيا زارنا وفد سوداني حكومي على رأسه المرحوم السيد عبد الله خليل[1] رئيس الوزراء الذي خلف السيد أزهري في رئاسة الوزراء بعد انشقاق الحزب الوطني الاتحادي[2]. وكان السيد عبد الله خليل قليل الكلام

(١) عبد الله خليل (١٨٩٢-١٩٧١م): تخرج من كلية غردون قسم المهندسين، وألحق بالمدرسة الحربية. كان من أعضاء جمعية اللواء الأبيض منفذة ثورة ١٩٢٤م التي كان المثقفون (الأفندية) في طليعتها. بعد فشل الثورة والموقف المتخاذل الذي وقفته الأورطة المصرية والحكومة المصرية منها تحول عبد الله خليل للفكرة الاستقلالية. وكان من أبرز المؤسسين لحزب الأمة كحزب يقود الشعار الاستقلالي وقد انتخب عبد الله خليل كأول سكرتير عام للحزب في ١٩٤٥م. كان رئيسا للوزراء في أول حكومة بعد الاستقلال، وقد سلم السلطة لقيادة القوات المسلحة ممثلة في الفريق عبود في ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م، وذلك وفق رؤية معينة نكصت عنها قيادة الجيش وبطشت به وبحزب الأمة على وجه الخصوص وبكل القوى السياسية السودانية عمومًا.

(٢) الحزب الوطني الاتحادي حزب نشأ وأجيز دستوره وتم التوقيع عليه في احتماع عقد بمنزل اللواء محمد نجيب في مساء ٢ نوفمبر ١٩٥٢م بعد أن كانت مشاورات تكوينه قد بدأت في الخرطوم ومنذ أغسطس ١٩٥٠. وهو عبارة عن تجميع لثمان مجموعات اتحادية بيانها: حزب الأشقاء بجناحيه (جناح إسماعيل الأزهري، وجناح محمد نور لدين) وحزب الاتحاديين، وحزب الجبهة الوطنية، وحزب وحدة وادي النيل، وحزب الأحرار لاتحاديين، ومؤتمر الخريجين العام، ومؤتمر السودان. انظر لتفاصيل ذلك: فيصل عبد الرحمن علي طه الحركة السياسية السودانية، والصراع المصري البريطاني بشأن السودان ١٩٣٦-١٩٥٣م دار الأمين- القاهرة- ١٩٩٨م. لاحقا انشق الحزب الوطني الاتحادي بخروج «حزب الشعب الديمقراطي» تحت رعاية السيد علي الميرغني.

ولكن على قلة كلامه لا يخلو من دعابة لطيفة، ذهب الساسة الحكوميون المذكورون لشراء بعض أغراضهم وذهبنا معهم مرافقين، ودخلنا متجرا فطلبوا جوارب فأحضرت لهم وقيل لهم: إن ثمن الجورب عشر جنيهات، وكان هذا السعر عاليا جدا في تلك الأيام فاستغرب السيد عبد الله خليل وقال: لماذا هذا السعر العالي؟!. قال له البائع ما معناه لأنه آخر صيحة because it is the last issue فقال عبد الله خليل: ماذا يجدي ذلك، فإن اشتريته وذهبت به للسودان وتفاخرت به على المحجوب[1] (يقصد السيد محمد أحمد محجوب وكان وزيرًا للخارجية ومشهورا بالأناقة بحيث لا يجاريه أحد في نوع وثمن ملبوساته).. لكشف لي محجوب عن جوربه، وقال هذه صيحة الغد أي إنتاج الغد this is not yet issued !.

❖ كان الشيخ محمد أحمد المرضي وهو أحد زعماء الحزب الوطني الاتحادي المعروفين قاضيًا شرعيًا، وكان يحكي لي كثيرًا من النوادر التي مرت به، وكان بالإضافة لمواقفه الوطنية مرحًا خفيف الظل، حكى لي أنه كان في زيارة لمنطقة الحلاوين وهم قبيلة أنصارية معروفة، وقال له بعض الناصحين يا مولانا إن هؤلاء القوم سوف يقدمونك لتصلي بهم فإذا صليت فلا تنس أن تتعوذ وتبسمل قبل قراءة الفاتحة في الركعة الأولى، وأن تقبض يديك وإلا اعتبروا الصلاة معك باطلة فسلموا أو أعادوها، قال: هيأت نفسي لذلك، وعندما قدموني تعوذت وبسملت ثم بدأت قراءتي ولكني بالرغم من ذلك سمعت المصلين يصيحون: سبحان الله! سبحان الله!

(١) محمد أحمد محجوب (١٩٠٨ - ١٩٧٦م) تخرج من كلية غردون التذكارية وعمل مهندسا بمصلحة الأشغال ثم تحول لدراسة القانون وصار من رجال القانون عمل بالقضاء أولا ثم المحاماة وصار نقيبا للمحامين عدة سنوات. شارك في الحركة الوطنية سياسيا بارزا، التحق بحزب الأمة واستقال عنه ثم عاد إليه، صار وزيرا للخارجية ثم رئيسا للوزارة وكان من أدباء السودان البارزين وله دواوين شعر وعدة كتب.

فسلمت، وسألت ماذا بعد؟ لقد تعوّذت وبسملت! قالوا: صحيح يا مولانا، ولكن سهوت عن الفاتحة نفسها!!.

وبهذه المناسبة، فإنني لا أفهم كيف يحتج الذين يسقطون التعوذ، والبسملة من الصلاة استنادا لآثار ظنية، مع إن التعوذ واجب بالنص القرآني: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾[1] ولا يجوز إسقاط البسملة؛ لأنها برسم القرآن تتصدر الفاتحة، وتتصدر كل سور القرآن ما عدا سورة التوبة.

❖ في عام ١٩٧٧م عقدت المصالحة الوطنية مع جعفر النميري[2]، وخلافًا لما أشاع بعض الناس كان قرار المصالحة بإجماع آراء أعضاء الجبهة الوطنية المتحدة[3]، كما أن الحل السياسي لقضايا البلاد الوطنية الكبرى هو الأصل، لكن نظام مايو أبطله بالمجزرة الوحشية التي أقامها في الجزيرة أبا وود نوباوي[4] وقفل كل مجال للعمل السياسي بما اتخذ من إجراءات قمعية في سبتمبر ١٩٧٣م بعد انتفاضة شعبان. لذلك عندما قرر النظام فتح قنوات الحل السياسي لقضية الحكم في البلاد تجاوبنا، وبعد عودتنا للسودان في ظل المصالحة دعا جعفر النميري لاجتماع تعارف حضره عدد من قادة المعارضة وكان من بينهم المرحوم السيد عبد الماجد أبو حسبو، وفي الكلمة التي ألقاها نميري قال: إن المصالحة سمحت لنا أن نتعارف، فأنا قبل

(١) سورة النحل الآية ٩٨.

(٢) جعفر محمد نميري (ولد ١٩٣٠م) سبقت ترجمته.

(٣) تفاصيل المصالحة الوطنية، والاتفاق حولها من جميع القيادات في الجبهة الوطنية في كتاب المصالحة الوطنية السودانية نشر عام ١٩٧٨م.

(٤) لقد قصفت الجزيرة أبا بالطائرات عصر الجمعة ٢٧ مارس ١٩٧٠م، واستمر القصف حتى الثلاثاء.. عدد قتلى الأنصار المحصورين ٧٤٥، والجرحى والمعوقين ٢٨٠، وكان قتلى الأنصار في أحداث ودنوباوي المتعلقة بأحداث أبا ١٦٢، والجرحى ٣٥.

هذا اللقاء كنت أظن أن الأخ أبو حسبو «أبيض» اللون (باعتبار أن هذا هو لون البشرة الغالب على أسرة أبو حسبو ولكن عبد الماجد كان شديد السمرة)، تضايق عبد الماجد من هذه الملاحظة ولذلك عندما جاء دوره ليتكلم قال: صحيح إن المصالحة أتاحت لنا فرصة التعارف، فأنا قبل أن أقابل نميري كنت أظن أنه مبرقع (أي: كلون النمر!!).

❖ نظام الفريق إبراهيم عبود[1] الذي حكم السودان من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٤م، نظام أقام الأوتقراطية في تاريخ السودان الحديث، وقد رفضه الشعب في ثورة أكتوبر ١٩٦٤م ومع مآخذه فإنه أفضل الأتوقراطيات الثلاث التي عصفت بالسودان بعد استقلاله، وأهم منجزاته أنه ركز على التنمية الاقتصادية وحافظ على التوازن المالي الداخلي والخارجي وتجنب شعارات التثوير الصبيانية التي خرب بها نظاما مايو، ويونيو البلاد، وإحساسًا من نظام نوفمبر (نظام الفريق إبراهيم عبود) بإنجازاته كتب على بوابة القيادة العامة: (احكموا علينا بأعمالنا) ، ومررنا أمام القيادة العامة فقال المرحوم الشيخ الطيب السراج: حكمنا عليكم ، وكان رأي الشيخ الطيب الذي يكرره دائمًا أن

(١) إبراهيم عبود (ولد ١٩٠٠) رئيس جمهورية السودان(١٩٥٨-١٩٦٤م)، تخرج في كلية غردون عام ١٩١٧م، ثم التحق بالمدرسة الحربية وتخرج فيها عام ١٩١٨م، عمل بسلاح قسم الأشغال العسكرية بالجيش المصري حتى انسحاب القوات المصرية في عام ١٩٢٤م، حيث انضم إلى قوة دفاع السودان، عمل في سلاح خدمة السودان وفرقة العرب الشرقية وفرقة البيادة. عين قمندانا لسلاح خدمة السودان عند السودنة ثم ترقى إلى رتبة أميرلاي عام ١٩٥١م. نقل إلى رئاسة قوة الدفاع كأركان حرب ثم ترقى إلى منصب نائب القائد العام عام ١٩٥٤م. قاد أول انقلاب عسكري بالسودان في نوفمبر ١٩٥٨م، وكان انقلابه في الحقيقة استلاماً للسلطة من رئيس وزرائها آنذاك السيد عبد الله خليل وفق اتفاق معين بتكوين حكومة قومية، وإجراء انتخابات لاحقة، ولكنه أطاح بالاتفاق وتنكر لبنوده وحل الأحزاب وأحل قياداتها حينما جاهروا بالمعارضة في السجون بمن فيهم السيد عبد الله خليل ، وقد أطاحت به ثورة أكتوبر الشعبية ١٩٦٤م.

الجاهل عدو نفسه!!. (الصحيح أن يقال احكموا لنا بأعمالنا).

❖ بعد قيام حركة ٣٠ يونيو ٨٩ كان قائدها وزملاؤه متحمسين لإدانة الديمقراطية الثالثة قائلين إنها ديمقراطية زائفة تسيطر على الأمور فيها أسرتان، صحيح أنه في كل البلاد المتخلفة يوجد نفوذ ديني وعشائري لبعض الأفراد والأسر لكن هذا النفوذ كان في السودان يمارس ضمن ضوابط الديمقراطية، ولا يسمح له بالتعدي على مكتسبات 'لدولة الحديثة مثل: حياد الخدمة المدنية - قومية القوات المسلحة - استقلال القضاء ، حياد مؤسسات التعليم ، حرية الصحافة وهلم جرا؛ وهي كلها مكتسبات تطيح بها النظم العسكرية في أول أعمالها. المهم أن رئيس النظام الجديد كان متحمسًا لأطروحته بأن الحكم في السودان كان فاسدًا؛ لأنه تحت نفوذ أسرتين، ولذلك عندما ذهب في زيارة لدول الخليج واصل هجومه على حكم الأسرتين في السودان بينما نظام الحكم لدي الدول المعنية يقوم على الولاء لأسرة واحدة. هكذا بدد رئيس النظام الجديد حماسته في الحديث لوسط لا يرى عيبا في نظام حكم تسيطر عليه أسرة أو أسرتان!!

❖ دعينا لمؤتمر إسلامي في الجزائر في عام ١٩٨١م، وقام أحد خطباء الوفد اليمني، وكان عالما تقليديًا وألقى خطابه بكل جدية مركزًا على الآتي:

١. الإفرنج هم أعداؤنا، ويريدون إطفاء نورنا وصدنا عن الحق الذي نحن فيه، والدليل على ذلك أن تراثنا يدور حول الجامع، وهو مكان خير وبركة؛ وبرهان فضله أنه مذكر، لكن الإفرنج حرفونا عن ذلك ويريدوننا أن نلتف حول الجامعة وهي مكان شر وفساد؛ وبرهان فسادها أنها مؤنثة!!

٢. أننا نخاطب بعضنا البعض بألقاب فاضلة مثل الشيخ، الحاج، العالم، الفقيه وهلم جرا! ولكن الإفرنج حرفونا عن ذلك، وجعلونا نتسابق للتسمي باسمي

أحمق ذكرين هما الديك، والثور فنقول: ديكتور!!!

❖ السودانيون يتهمون إخوتهم المصريين بأنهم مع قرب الجوار والمصالح المشتركة لا يعرفون السودان وأهله بالقدر الكافي، وتكثر النكات التي تدل على أن السودانيين يعرفون عن مصر وأهلها أضعاف ما يعرف المصريون عن السودان وأهله، وأكثر ما يؤلم السودانيين أن يخطئ المصريون في أسمائهم، هذا يحدث باستمرار وقد يشفع لهم غرابة أسماء بعض السودانيين في أذن المستمع المصري، وفي هذا الصدد يحكي أن موظفًا مصريًّا اطلع على جواز السيد أبّو حسن أبّو، فقال له: أبو حسن أبو مين؟!.

❖ وفي عام ١٩٧١م كنت محبوسًا في مصر في كلية الشرطة، وكان يحرسني عدد من أفراد الشرطة يتناوبون على حراستي وعلى رأس الحراس ضابط من ضباط الشرطة، وكان هذا الحبس غريبًا لعله من الأشياء العملية القليلة التي حققها التعاون السوداني المصري في عهد مايو، وأثناء محاكمة المرحوم عبد الخالق محجوب بعد محاولة انقلاب يوليو ١٩٧١م جاء في الجريدة المصرية أن المتحري سأل عبد الخالق هل تشرب الويسكي؟ فرد عبد الخالق: أشرب ما تيسر. اطلع أحد ضباط الشرطة الذين معي على ما ورد في الجريدة، ثم قال لي: الله انتو عندكم في السودان مشروب اسمه ما تيسر؟؟!

الفصل الثاني

مواقف مدهشة

المواقف التي سأذكرها هنا لا تدخل في باب الفكاهة مباشرة، ولكنها مواقف نادرة وفيها عنصر إحراج وغرابة وربما عنصر إضحاك:

١. في أكتوبر ١٩٦٤م بلغ الرفض للنظام العسكري قمته، وبعد ندوة الجامعة الشهيرة كتبت القوى السياسية المعارضة مذكرات للنظام تدينه وتطالب بعودة القوات المسلحة لثكناتها واستعادة الديمقراطية، ونظمت القضائية موكبًا للمطالبة بإجراء تحقيق عادل في أحداث الجامعة وتصدت الشرطة لموكب القضائية وتحول الموقف من مجرد المطالبة بتحقيق إلى إعلان إضراب عام أيدته في حينه القوى السياسية والنقابية وانتشر الإضراب العام في العاصمة وفي الأقاليم وتحركت مظاهرات مستمرة تدين الديكتاتورية، وتطالب بالحريات الأساسية وبعد أربعة أيام من التوتر الشديد قرر الفريق إبراهيم عبود حل كل مؤسسات الحكم المجلس الأعلى للقوات المسلحة ومجلس الوزراء والمجلس المركزي كوسيلة لاحتواء الانتفاضة وكانت المقاومة موزعة على مركزين: مركز في نادي أساتذة جامعة الخرطوم في الخرطوم، وفيه رئاسة جبهة الهيئات التي تكونت لتنظيم الإضراب العام ومركز آخر في بيت المهدي في أم د رمان وفيه رئاسة الجبهة القومية المكونة من الأحزاب السياسية المعارضة للنظام العسكري واختار الفريق إبراهيم عبود مخاطبتنا في أم د رمان، فأرسل إلينا في بيت المهدي اللواء عوض عبد الرحمن صغير، واللواء الطاهر عبد الرحمن المقبول لفتح باب التفاوض معنا رحبنا بهما في بيت المهدي،

وقلنا إننا نرى أن يكون التفاوض مع كل أطراف المعارضة، أي : بإضافة جماعة نادي الأساتذة إلينا، والغريب أن وفدا من جماعة نادي الأساتذة وصل إلي بيت المهدي بعد وقت قصير من وصول وفد الفريق إبراهيم عبود، فاتفقنا أن يذهب وفد جامع ممثل للمعارضة؛ لمقابلة الفريق إبراهيم عبود في القصر في الخرطوم وتكون الوفد من الإخوة مبارك زروق[1]، بابكر عوض الله[2]، حسن الترابي[3]،

(١) مبارك بابكر زروق (ت١٩٦٥ م) من أوائل المحامين السودانيين وكبار القادة السياسيين. خريج كلية غردون. عمل بالسكة الحديد ثم التحق بمدرسة الحقوق وزاول المحاماة، من قادة الحزب الوطني الاتحادي. انتخب في ١٩٥٣م عضوا في مجلس النواب عن دوائر الخريجين، عُين وزيرًا للمواصلات وزعيما لمجلس النواب في أول حكومة شكلها السيد إسماعيل الأزهري. بعد الاستقلال في ١٩٥٦ عين أول وزيرًا للخارجية. كان عضوا في برلمان ١٩٥٨م عن دائرة ريفي الخرطوم، كما كان زعيما للمعارضة في مجلس النواب. بعد قيام حكومة نوفمبر ١٩٥٨، واشتداد المعارضة السياسية له اعتقل في يوليو ١٩٦١م ونفي في جوبا مع عدد كبير من قادة الجبهة الوطنية المعارضة للنظام، وأفرج عنه في ٢٨ يناير ١٩٦٢م. بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤م عين وزيرا للمالية في الحكومة الانتقالية.

(٢) بابكر عوض الله ولد (١٩١٧م) سياسي سوداني ولد بالقطينة وتخرج في مدرسة الحقوق بكلية غردون التذكارية عام ١٩٤٠م . نال ماجستير القانون. عمل رئيساً لمجلس النواب في ١٩٥٤م ،و تولى رئاسة المحكمة العليا ومنصب رئيس القضاء عام١٩٦٤م ،ثم منصب رئيس الوزراء إبان حكومة مايو في الفترة من ٢٥ مايو ١٩٦٩ وحتى أكتوبر ١٩٧٠م.

(٣) حسن الترابي- الدكتور (ولد في فبراير ١٩٣٢م) حسن عبد الله دفع الله الترابي، ولد بكسلا لوالد يعمل بالقضاء الشرعي، وأسرته من قرية ود الترابي يعود نسبها للشيخ حمد النحلان الذي ادعى المهدية في عهد الدولة السنارية. تخرج من كلية الحقوق جامعة الخرطوم، ثم تلقى الدراسات العليا في إنجلترا وباريس متخصصًا في القانون الدولي. انضم لتنظيم الإخوان المسلمون وصار من أبرز قياداته، وقد انشق التنظيم لاحقًا إلى جناحين أحدهما بقيادته، والآخر بقيادة الأستاذ صادق عبد الله عبد الماجد. تحول التنظيم تحت قيادته إلى جبهة الميثاق الإسلامي، ثم الجبهة الإسلامية القومية التي دبرت بقيادته انقلاب ٣٠ يونيو ١٩٨٩م، ودخل سجن كوبر مع غيره من قيادات تنظيمهم للتمويه، أطلق سراحه، وصار الأمين العام للمؤتمر الوطني الحزب الحاكم، وفي العام ٢٠٠١م انشق الحزب وصار أمينًا عامًا للمؤتمر الشعبي المعارض للنظام. له العديد من المؤلفات في الفقه، والفكر الإسلامي.

أحمد سليمان[1]، أحمد السيد حمد، عابدين إسماعيل وشخصي. وذهبنا لمقابلة الفريق إبراهيم عبود في القصر الجمهوري، وجلسنا في جانب، وجلس هو وزملاؤه في جانب. وسأل ماذا تريدون؟

توليت أنا الرد نيابة عن وفد المعارضة فقلت: حسن أنك قد قمت بحل أجهزة النظام الحالي، والآن نحن نطلب إعادة الدستور المؤقت لعام ١٩٥٦م؛ الذي عطل بقيام انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م، ولدهشتنا تساءل الفريق إبراهيم عبود: الدستور المؤقت؟ ما هو هذا الدستور المؤقت؟ وكان الرد محرجًا لجماعته وكان فيهم مستشاره القانوني السيد احمد متولي العتباني فهمس شيئًا في أذنه فقرر رفع الاجتماع على أن يستأنف في وقت لاحق وقد كان.

٢. دعيت في عام ١٩٦٦م، ورئيس مجلس السيادة آنذاك السيد إسماعيل الأزهري ووزير الخارجية السيد إبراهيم المفتي - رحمهما الله - إلى اجتماع قمة أفريقي في كنشاسا، وكان مخططا أن نلتقي على جانب المؤتمر بالسيد ملتون أبوتي[2] رئيس

(١) أحمد سليمان- المحامي (ولد ١٤/ ١/ ١٩٣٤م) ولد بأم درمان، خريج كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة. من مؤسسي الحزب الشيوعي السوداني، ومن قادة الجبهة المعادية للاستعمار. فصل من عضوية الحزب الشيوعي عام ١٩٧٠، تقلد عدة مناصب وزارية وعمل سفيرا للسودان في عدد من العواصم. انضم للجبهة الإسلامية القومية بعد انتفاضة رجب/ أبريل ١٩٨٥م.

(٢) أبولو ملتون أبوتي Apollo Milton Obote (٢٨ ديسمبر ١٩٢٤- ١٠ أكتوبر ٢٠٠٥) ولد بقرية أكوروكو بشمال يوغندا، انتخب عضوًا بالمجلس التشريعي عام ١٩٥٨م، وقاد بلاده للاستقلال من الاستعمار البريطاني في ١٩٦٢، وكرئيسًا للوزراء منتخب قبل بدستور يجعل الرئيس منصبًا تشريفيًا بينما السلطات الحقيقية لدى رئيس الوزراء، كما يعطي لحق الفيدرالي لخمسة ملكيات تقليدية بما في ذلك مملكة بوغندا (بجنوب يوغندا) التي صار ملكها (الكاباكا) إدوارد موتيسي رئيسا ليوغندا، ولكن أبوتي أعلن حالة الطوارئ وعلق الدستور في ١٩٦٦م وصار رئيسًا للبلاد ورئيسًا لوزرائها في ذات الآن، ومنذ ذلك الحين صار منصب الرئيس هو الأهم بيوغندا، وأرسل قوات بقيادة الجنرال عيدي أمين لإخضاع حاكم بوغندا (موتيسي الثاني)، ثم ألغى لاحقا=

وزراء يوغندا لنشكره على تعاون حكومته معنا في مجال أمن السودان، واحتواء التمرد وكان معروفا أن أبوتي يتعاون معنا من وراء ظهر الكنيسة، ومن وراء ظهر المعارضة اليوغندية ولذلك اتفق أن يكون الحديث معه سريا وبعد انسحاب الإعلاميين. ولكن الخارجية لم تنقل هذا التنبيه لرئيس مجلس السيادة ربما، لأنها توقعت أن يكون المتحدث باسم السودان هو رئيس الوزراء، التقينا بالسيد أبوتي وبينما أجهزة الإعلام مسلطة على الوفدين تحدث السيد الأزهري قائلا: أيها الأخ نحن نريد أن نشكركم على الأشياء المفيدة التي تقوم بها يوغندا معنا!! وخيمت الحيرة على الجميع، لكن أبوتي أسرع بتغيير الموضوع قائلاً: نعم هنالك أشياء كثيرة تحدث في يوغندا فالكاباكا[1] مثلا يسبب لنا متاعب كثيرة (الكاباكا يحتل منصب ورائي كزعيمًا لقبيلة البقاندا أكبر قبائل يوغندا وعندما استقلت يوغندا اختير رئيسا

=جميع الملكيات، وقد أطاح به عيدي أمين في انقلاب عام ١٩٧١، وفي ١٩٧٩م عزل أمين، وعاد أبوتي ليوغندا وأقام حكما شموليا ثم أطيح به من جديد في ١٩٨٥م وفر لتنزانيا ثم استقر بزامبيا، توفي معانيًا من الفشل الكلوي بمستشفى بجوهانسبيرج بجنوب أفريقيا.

(١) الكاباكا: أي الملك وكان ملك بوغندا Buganda بجنوب يوغندا، وهو إدوارد موتيسا (١٩نوفمبر ١٩٢٤م- ٢١ نوفمبر ١٩٦٩م) السير إدوارد فريدريك وليام دايفيد والوقيمبي موتيبي لوانجولا موتيسا يلقب بالملك فريدي، كان ملكًا وزعيمًا لقبيلة غاندا القبيلة الأكبر في بوغندا، كان رئيسا ليوغندا من ١٩٦٣ إلى ١٩٦٦. صار ملكا على بوغندا في ١٩٣٩ خلفا لوالده (الملك داودي كوا الثاني) دخل جامعة كيمبردج بإنجلترا، واصل مجهودات أبيه بتحويل المملكة إلى ملكية دستورية، وعمل على جعل بوغندا مملكة مستقلة عن يوغندا ولكن مسعاه لم ينجح وقد عزل ونفي لفترة من الزمان. عاد موتيسا لعرشه في ١٩٥٥م. وفي ١٩٦٢م دمج حزبه (كاباكا بيكا :أي: الملك وحده) مع المؤتمر الشعبي اليوغندي ودخلا سويا انتخابات ١٩٦٢م، وفي ١٩٦٣ ألغى أوبوتي تبعية يوغندا لدول الكومونولث وانتخب موتيسا كرئيس -تشريفي السلطات- ليوغندا ولكن موتيسا لم يرض بهذا الوضع الصوري واستمر في الخلاف مع أوبوتي حول مستقبل بوغندا، وفي ١٩٦٦م عزله أوبوتي ونفاه لبريطانيا. توفي مسممًا بالكحول في شقته بلندن ما اعتبرته السلطات البريطانية انتحارًا، واعتبره البعض اغتيالًا.

للجمهورية على نمط الملك في بريطانيا يملك ولا يحكم)، واستمر أبوتي يتحدث عن الكاباكا ولا يعطي فرصة للسيد الأزهري ليوضح مقصده حتى انسحبت جماعات الإعلام.

٣. كان ميثاق ثورة أكتوبر ١٩٦٤م قد ألزم الحكومة الانتقالية التي كونت برئاسة السيد سر الختم الخليفة[١] بإجراء انتخابات عامة في البلاد في ظرف ستة أشهر، ولكن وقع خلاف بين أطراف الحكومة، وكان اتجاه الشيوعيين وحزب الشعب الديمقراطي عدم إجراء الانتخابات في موعدها، وكان موقف حزب الأمة والوطني الاتحادي (أزهري) وجبهة الميثاق الإسلامي أن تجري الانتخابات في موعدها واتضح أن عددًا من وزراء الحكومة الانتقالية قد دخلوا الحكومة باسم جبهة الهيئات (جبهة مكونة من النقابات) ولكنهم كانوا في الحقيقة أعضاء في الحزب الشيوعي، مما أخل بالتوازن الحزبي داخل الحكومة إذ كان الاتفاق أن تمثل الأحزاب بوزير واحد عن كل حزب على أن تكون بقية الحقائب الوزارية لشخصيات محايدة، اتضح أن عددًا من الشيوعيين دخلوا الحكومة بالصفة النقابية وباعتبارهم شخصيات محايدة!! كان هؤلاء يحاولون الإبقاء على عمر الحكومة الانتقالية أطول فترة ممكنة، واتضح جليًّا أن الحكومة بتكوينها غير المتوازن هذا لن تجري الانتخابات في موعدها. ورأينا ضرورة استقالة الحكومة الانتقالية، وتكوين حكومة أخرى موزونة لتجري الانتخابات في موعدها، وليزال منها عنصر المبالغة

(١) سر الختم الخليفة الحسن (١٩١٩ - ١٨ فبراير ٢٠٠٦) ولد بالدويم . والده الخليفة الحسن أحمد ووالدته نفيسة الفكي العبيد. تخرج في كلية غردون التذكارية مدرسة المعلمين عام ١٩٣٧ ، ثم كلية إكستر بجامعة أوكسفرد (١٩٤٦م). عمل بالتعليم في الجنوب. اختير رئيسًا لحكومة أكتوبر الانتقالية الاولى والثانية (١٩٦٤ -١٩٦٥)، ثم سفيرًا للسودان في عدة عواصم، ونال لقب (سير) من ملكة بريطانيا. تقلد عدة وزارات.

في الوجود الشيوعي. وتأزم الموقف السياسي في البلاد، والتهب الشارع السياسي السوداني وأحدق الخطر بالنظام الانتقالي الذي قام في البلاد بعد ثورة أكتوبر، وحلاً للأزمة اتفقت مع رئيس الوزراء السيد سر الختم الخليفة على أن يقدم استقالته مما سيؤدي تلقائيًا لإقالة جميع وزراء الحكومة، ثم يعاد تكليفه بتكوين حكومة جديدة فيكون حكومة سليمة التوازن الحزبي، وكان من الضروري لنجاح هذه الخطة أن يوافق عليها مجلس السيادة وكان رئيس مجلس السيادة في تلك الفترة، وهو الشخص المنوط به قيادة المجلس وتحديد موقفه هو الدكتور التجاني الماحي[1]، وكان الدكتور التيجاني الماحي محسوبًا على الجانب الآخر الذي يرى تأجيل الانتخابات ومد عمر الحكومة الانتقالية، ولكنني راهنت على وطنية د. التيجاني وذهبت إليه وأوضحت له أن تأجيل الانتخابات سوف يلهب الشارع السياسي السوداني مما يعرض تطور البلاد الدستوري للخطر. كان د. التيجاني الماحي يستمع لي بإصغاء ثم ما لبث بعد أن انتهيت من حديثي أن بدت عليه أمارات التفكير العميق، وفجأة قام من مجلسه بجانبي وتوجه إلى بيانو في قاعة القصر دون أن يذكر لي أي شئ، وانهمك في عزف مقطوعة موسيقية ـ لعلها تساعده على التفكير ـ ثم جاء وقال لي بكل حزم: نعم civil coup يجب أن نقوم بانقلاب مدني لإنقاذ البلاد أنا أوافق على الإجراء التصحيحي وإذا لم يوافق أعضاء مجلس السيادة الآخرون على ذلك نستعين بأحزابهم عليهم.. وافق د. التيجاني بحماس شديد على إجراء التصحيح وتصرف بهمة وطنية لم تراع أية عوامل أخرى، ونفذت الخطة كما

(١) التيجاني الماحي (١٩١١ - ٨ يناير ١٩٧٠) من مواليد الكوة، تخرج من مدرسة كتشنر الطبية عام ١٩٣٥، رائد الطب النفسي في السودان، تقلد منصب رئاسة مجلس رأس الدولة بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤م، كان ذا ثقافة واطلاع واسعين، وكان يعد موسوعة متجولة. له عدة مقالات منشورة في كتاب «Selected Essays».

رسمت وأجريت الانتخابات في موعدها.

٤. في عام ١٩٦٥م زرت ضمن وفد حزب الأمة الجمهورية العربية المتحدة واجتمع بنا الرئيس جمال عبد الناصر[١]، وحكى لنا ضيق حكومته بأحداث اليمن وكيف أنه يتطلع لأي إجراء عربي يضع حدا للحرب الأهلية في اليمن، ويضع نهاية للوجود العسكري المصري هناك، وجرت مساع عربية أدت لاتفاق الملك فيصل[٢] والرئيس جمال أن يلتقيا في جدة لتصفية النزاع حول اليمن.

كنت متابعًا لظروف الحرب الإقليمية، والدولية وكان واضحا لي أن القيادة المصرية دخلت اليمن بحسابات غير صحيحة وأنها تريد إيجاد مخرج سليم لها؛ لذلك أرسلت برقية للرئيس جمال وللملك فيصل باسم رئيس حزب الأمة ورحبت باجتماعهما واقترحت لهما اتفاقا من أربع نقاط وبعد إرسال البرقية نشرتها الصحف السودانية وأخذ أحد الصحافيين السودانيين نص برقيتي المنشور ومر على زعماء الأحزاب السودانية يسألهم عن رأيهم فيها، فكان موقف الشيخ علي عبد الرحمن رحمه الله رئيس حزب الشعب الديمقرطي والقوى الناصرية في السودان هو إدانة برقيتي واتهامي بالسعي لتصفية ثورة اليمن. بعد يومين من هذه المداولات أذيع اتفاق جدة بين الملك فيصل والرئيس جمال وكان مطابقا تماما لما ورد في برقيتي، هل أخذوا بها أم هو وقع الحافر في الحافر؟ الله أعلم، ولكن الصحفي الذي سأل الأحزاب السودانية عن رأيهم في برقيتي، ذهب إليهم يسألهم عن رأيهم في اتفاق

(١) جمال عبد الناصر (١٩١٨-١٩٧٠م).

(٢) فيصل بن عبدالعزيز آل سعود الابن الثالث في سلسلة أبناء الملك عبدالعزيز آل سعود الذكور - (١٩٠٦ / ١٣٢٤ - ٢٥ مارس ١٩٧٥/ ١٣٩٥ هـ) ملك المملكة العربية السعودية، للفترة ١٩٦٤ وحتى ١٩٧٥ م. أقام عدة إصلاحات بالمملكة، واغتاله الأمير فيصل بن مساعد بن عبدالعزيز آل سعود مطلقًا عليه النار في مكتبه بالديوان الملكي. خلفه ولي العهد الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود.

جدة قالوا جميعا : حتى الذين أدانوا البرقية نبارك اتفاق جدة قيل لهم: ولكن هذا الاتفاق مطابق لبرقية الصادق، وقد شجبتموها قالوا: الرئيس جمال عبد الناصر أدرى بمصلحة الثورة العربية؛ لذلك نؤيد ما اتفق عليه!!.

٥. التطور السياسي في السودان فيه دروس كثيرة ومفيدة. من أهم مبادئ الديمقراطية تحقيق استقلال القضاء ولكن كثيرًا من الناس وهم يحرصون على استقلال القضاء يهملون شرطًا لازمًا لاستقلال القضاء: حياد القضاء والقضاة. لقد لعب السيد بابكر عوض الله دورًا هامًا في ثورة أكتوبر، وعندما كنا نكتب ميثاق الثورة كان السيد بابكر عوض الله أحرص الناس أن يتولى رئاسة القضاء مجلس لا فرد، وقبلنا رأيه.. لم يكن السيد بابكر يتصور أنه سوف يصبح رئيسا للقضاء نتيجة للثورة، ولكن بعد نجاح الثورة صار رئيسًا للقضاء فعطل بند الميثاق الخاص بتولي مجلس لصلاحيات رئيس القضاء وصار يتصدى لكل من يحاول تنفيذ هذا البند من الميثاق داخل القضائية، أو خارجها وأهم من ذلك حرص على استقلال القضاء ولكن دون مراعاة لحياد القضاء، مما جعل رئاسة القضاء في عهده منبرًا لاتجاهات حزبية سياسية معينة.. منبرًا لعب دورًا ملموسًا في الانقضاض الثاني على الديمقراطية في السودان.

❖ كثير من الساسة الجنوبيين يأخذون على ساسة الشمال أنهم يتنصلون من التزاماتهم. قالوا: هذا عن مطلب الفدريشن الذي طالب به الجنوبيون في عام ١٩٥٥م وجعلوا الموافقة عليه شرطا لتصويتهم لجانب إعلان استقلال السودان داخل البرلمان، ووعدت الأحزاب الشمالية بالنظر في قضية الفدريشن عندما يوضع دستور البلاد، طبعًا لم ينظر في الأمر لوقوع انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م، والانصراف عن وضع الدستور. ولكن حتى قبل وضع الدستور كان الاتجاه داخل

لجنة الدستور القومية -التي تكونت لوضع دستور دائم - مضاد للفدريشن، فقد رفضت اقتراح الأعضاء الجنوبيين بتطبيق النظام الفيدرالي وأحالته للجنة فرعية، وفي ديسمبر ١٩٥٧م اتخذ غالبية أعضاء اللجنة قرارا باستبعاد النظام الفيدرالي من النظم التي سيكون عليها شكل الدولة السودانية[١]. كما كان هناك اتجاه شعبي قوي في الشمال ضد الفدريشن باعتباره فكرة أو صنيعة الاستعمار، وقد عبر عن ذلك العبادي[٢] بقوله:

الفدريشن دة حربة طرينا ما سكينا

التصميم إيدن وإخراج معامل كينا

من واجب الجميع نبحث بكل سكينا

قبال الحلاوا تذوب وتلقـــا الكينا

إن موقف العبادي كصوت شاعر فرد حر يمكن الدفاع عنه، ولكن موقف الأحزاب التي تتنصل من اتفاقاتها لا يمكن بالطبع الدفاع عنه. هناك موقف أشهد عليه، وهو أن الأحزاب السودانية كلها اتفقت في عام ١٩٦٧م على أن يكون للجنوب حكم ذاتي إقليمي تم الاتفاق عبر لجنة الاثنى عشر وعبر مؤتمر الأحزاب السودانية، ولكن عندما أُعلنت هذه القرارات عارضها اتحاد الإداريين السودانيين باعتبارها مدخلا لتفتيت السودان، وكانوا يرون ضرورة الاستمرار في حكم السودان مركزيًّا وأرسل اتحاد الإداريين وفدًا لمقابلة زعماء الأحزاب، فأعلن لهم كل الزعماء رفض الحكم الإقليمي، وأيدوا الاستمرار في المركزية رغم ما قررته

(١) محمد عمر بشير مشكلة جنوب السودان.

(٢) أحمد بابكر العبادي (١٨٩٤ - يوليو ١٩٨١م).

أحزابهم، ولكنني وحسن الترابي[1] وعبد الخالق محجوب[2] أعلنا لوفد الإداريين التزامنا بتلك القرارات. وفي لقاء محرج مع السيد وليم دينق[3] قال لي: ما قيمة الاتفاقيات إذا كان أصحابها يتخلون عنها قبل أن يجف مدادها؟؟

٦. عندما وقع انقلاب ٢٥ مايو ١٩٦٩ كنت في أم درمان، ولم تكن لي صفة رسمية في الحكومة لذلك لم أُعتقل في أول أيام الانقلاب، واجتمع جمهور من الناس في بيت المهدي وخاطبتهم قائلاً: لا بديل للنظام الديمقراطي ويحتمل تقلب

---

(١) حسن الترابي- الدكتور (ولد في فبراير ١٩٣٢م) سبقت الترجمة له.

(٢) عبد الخالق محجوب عثمان (٢٣ سبتمبر ١٩٢٧– يوليو ١٩٧١م) ولد بحي المكي بأم درمان درس في خلوة إسماعيل الولي؛ التابعة للطريقة الإسماعيلية، ثم مدرسة الهداية الأولية الأهلية؛ ومدرسة أم درمان الوسطي (المدرسة الأميرية) والتحق بكلية غردون، ثم هاجر لمصر لإكمال دراسته حيث انتسب بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول؛ وهناك صار كادرا قياديا في الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو)؛ كبرى تنظيمات الحركة الماركسية المصرية حينها، وقطع دراسته بسبب المرض؛ وعاد للسودان عام ١٩٤٩ والتحق بالحركة السودانية للتحرر الوطني (حستو) التي تأسست عام ١٩٤٦؛ وقاد صراعا داخلها أسفر عن اختياره سكرتيرًا عاما للحركة. شارك في معارضة نظام عبود العسكري، وكان عبد الخالق من أبرز القيادات السياسية بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٤ كسكرتير عام للحزب الشيوعي السوداني، حل حزبه في ١٩٦٦م بقرار من البرلمان وطرد نوابه، وقام الحزب بتأييد انقلاب مايو ١٩٦٩م، وشارك في وزاراته ومؤسساته المختلفة، ثم قرر الحزب الانقلاب على السلطة المايوية تحت قيادة الرائد هاشم العطا في ١٩ يوليو ١٩٧١م، ونفذ مذبحة في بيت الضيافة. فشل الانقلاب وقدم قادة الحزب والانقلاب لمحاكمات ميدانية صورية عاجلة أعدموا إثرها، وكان عبد الخالق على رأسهم. يعد من أبرز القيادات الفكرية للحزب الشيوعي السوداني، وله علاقات طيبة مع كثير من السياسيين السودانيين.

(٣) وليم دينق (١٩٢٩ - ٥ مايو ١٩٦٨م) سياسي جنوبي، جمعته بالمؤلف صداقة وتحالف سياسي كان واعدًا في فترة الديمقراطية الثانية. كان زعيمًا لحزب سانو، ومن أوائل الزعماء الجنوبيين الذين استجابوا للتغيير الديمقراطي في الحكم إبان ثورة أكتوبر ١٩٦٤م، وعادوا للسودان من دول الجوار الأفريقي. اغتيل في مؤامرة لم تكشف أبعادها حتى الآن.

نظم الحكم في محاولة لتحقيق الأحسن؛ لذلك فحدوث انقلاب إذا تعثرت المسيرة الديمقراطية لمراجعة الأداء وارد لكن هذا الانقلاب ليس لتصحيح مسار الديمقراطية بل لفرض رأي حزب أقلية هو الحزب الشيوعي على البلاد، وهذا مرفوض وواجب المسلمين والوطنيين مقاومته.

❖ أرسل النظام الجديد لي قوة بقيادة حسين أبو شيبة ومحجوب برير محمد نور[1]، وأُعطيت القوة تعليمات أن تهجم علينا وتقتلني إذا وجدت موقفي مناهضا للنظام الجديد أو وجدت أية ذريعة أخرى كأن أقاومهم مثلا، وتوجهت القوة إلى منزلي في الملازمين، وقبل مغادرتها مركز القيادة همس السيد بابكر عوض الله وقد كان رئيسا للوزراء في أذن محجوب قائلاً: لا تترك أبا شيبة يتصرف وحده؛ لأنه سوف يفتعل أي ذريعة ليقتل فتدخل معه فيما يقول ويفعل لتجنب القتل. وصلت القوة لمنزلي ودخل الضابطان لمقابلتي فقالا لي: لقد وقعت ثورة في البلاد لها أهداف وطنية وهي لا تسمح بأية معارضة لها فما قولك؟ قلت لهما: إذا كانت أهداف الثورة هي تصحيح مسار الديمقراطية فالتفاهم معها ممكن ولكن إذا كان هدفها هو فرض برامج حزب أقلية على الوطن فهذا مرفوض ولا أقبله. ويبدو أن هذا الرد أدهشهم المهم قالا لي: إنهما سوف يذهبان للقيادة ويذكران ما سمعا مني وتركاني دون فتك، أو اعتقال.. وحتى هذه اللحظة لا أدري كيف نجوت من خطة القتل هذه؟! وبهذه المناسبة أذكر أن خطط قتلي أثناء عهد مايو تكررت، ولكن الله صرفها عني، أذكر منها التدابير الآتية:

أمرت السلطات بتحويلي من منزل كنت معتقلاً فيه في جبيت إلى سجن

(١) محجوب برير محمد نور (عقيد م) (ولد ١٥/ ١٠/ ١٩٣٤م) ولد بمدينة سنجة، تخرج في الكلية الحربية السودانية ١٩٦٠م، ثم ليسانس الآداب جامعة القاهرة فرع الخرطوم. كان ضابطًا بالقوات المسلحة السودانية، له عدة مؤلفات.

بور تسودان وعلمت أن تعليمات صدرت بتصفيتي في الطريق إلى بور تسودان ولكن التعليمات وصلت بعد وصولي للسجن.

أثناء وجودي في بريطانيا منفيًّا قرر رئيس النظام تصفيتي ولكن مدير الأمن العام آنذاك علي نميري اعترض بأن الاغتيال السياسي إذا دخل الساحة السودانية سوف يصبح تقليدًا، ثم أسند النظام الأمر لأيد أجنبية ووصلنا الخبر كما وصل لسلطات الأمن البريطانية فاتخذت إجراءً وقائيًّا، وأرسلت ضابطا ليقيم معي في منزلي للحراسة.

وكانت آخر تدابير النظام المايوي لابسة ثوبا قانونيا، ففي ١٩٨٣م أصدر نميري قوانين سبتمبر الجائرة، وأدخل قانون أمن الدولة التعسفي ضمنها، وساوى بين معارضة النظام، والبغي، والردة في الشريعة، ثم قرر نميري أن يكون تعيين محاكم العاصمة الجنائية من اختصاصه الشخصي ليعين فيها الأشخاص الذين يضمن طاعتهم.

بعد اتخاذ تلك الإجراءات قرر نميري أن يوقعني في الشرك، فأرسل لي السيد شريف التهامي في السجن برسالة أنه يريد مكتوبا يحوي رأيي في «قوانين الشريعة»، ولكني استشففت المؤامرة، وقلت له: إن رأيي معروف وقد أُدليت به في خطبة شهدها الملايين، ولو كان يريد مكاتبة في الموضوع فعليه أن يرسل هذا الطلب مكتوبًا لأرد عليه كتابة. ولما لم تنجح هذه الخطة قرر النميري إطلاق سراحي أنا وزملائي في ١٨ ديسمبر ١٩٨٤م وكان متوقعًا أنني بعد إطلاق سراحي سوف أقول ما يوقعني في طائلة قوانينه فأقدم للمحاكمة باسم البغي أو الردة. ولكنني فطنت إلى أن إطلاق سراحي لم يكن إلا لأقع في شرك، فتجنبت التصريح بشيء واضح حول قوانين سبتمبر بعد الذي قلته في إدانتها؛ وسجنت بسببه، ونجوت من

الشرك.

ورأيت أن أنصح من بقي مسجونًا من الأخوة الجمهوريين الذين جمعتهم معنا أسوار كوبر لمعارضة قوانين سبتمبر، وكان قد دار بيننا وبينهم أثناء وجودنا بالسجن حوار هام. قلنا لهم أنتم أيدتم نميري تأييدًا مطلقًا في إهدار حقوق الآخرين الإنسانية فبطش بنا وبغيرنا بتأييد منكم فكيف تبررون هذا؟ وكيف تأمنون سفاحا أن ينقلب عليكم إذا اقتضت مصالحه السياسية، وقد فعل؟! ومع أننا نشجب الطائفية ألا توافقون أنها التزمت بالحريات العامة وحيدة الخدمة المدنية واستقلال القضاء بينما أهدرها نميري؟!

الشاهد أنني بعد خروجي من السجن طلبت زيارة السجن مبررًا؛ لذلك بجمع بعض أغراضي التي تركتها، والتقيت بالأستاذ محمود محمد طه وذكرت له ما أراه من شرك نصب للإيقاع بكل معارض ونصحته ألا يصدر عنه، أو عن جماعته في هذه الظروف أي تصرف يوقعه في الشرك، ولكنه رأى غير رأيي، خاصة وأن قراءتهم للأسباب الحقيقية لقوانين سبتمبر لم تكن متفقة مع قرائتنا، فقد كان الجمهوريون محتفين طوال العهد المايوي به وبرئيسه، ويعتبرون أنه كان الأداة الكفؤة للتخلص من الطائفية ثم بعد ذلك الشيوعيين، وكانوا يعتبرون ما وقع فيه من تحالف مع الإخوان أمر طارئ ويمكن استدراكه، وأن البلاء الحقيقي الذي أتى بالقوانين الخاطئة هو «الإخوان المسلمون».. بينما كنا نعتقد أن الإخوان لم تكن لهم يد فيما تم بل أبعدوا عن كل ترتيباته ولكنهم أيدوه كتحصيل حاصل خاصة وقد أعطاهم ذريعة جديدة للبقاء في نظام تنكر لكل المبادئ التي صالحوه على أساسها (الما عندها تيلة تسوي الحد حيلة!).. المهم لم يستمع الإخوة الجمهوريون لنصيحتنا، وكان ما كان.

هذه هي المؤامرات ضدي التي علمتها وهناك ما لم أعلم منها، وربما تكشف عنه

الأيام بعد معرفة كل خفايا النظام الذي عذب السودان ما بين ٦٩ و١٩٨٥م.

لعل السبب في هذا التركيز على قتلي هو أن النظم غير الشرعية التي تتسلط على حكم السودان تعتبرني رمز الرأي الآخر والشرعية الدستورية والاعتراض الشعبي، وتتصور أنها إذا قتلت هذا الرمز، فإن دعوتها لشرعية زائفة سوف تجد فرصة أكبر للقبول. إن موتي بأية وسيلة وارد، ولكن قبول الشرعية الزائفة في السودان غير وارد بل رفضها في ظروف السودان المعروفة، وفي المحيط الدولي الراهن حتمي.

❖ تمت المرحلة الأولى من المصالحة الوطنية في عام ١٩٧٧م، وأشرف عليها السيد فتح الرحمن البشير، وكنت قد وعدته أن ألتقي بجعفر نميري في أي مكان شاء إذا هو قبل شروط المصالحة. وجاءني الرد بالإيجاب، وأنه يدعوني لمقابلته في بور تسودان، وبينما نستعد للسفر جاءتني رسالة من أحد الناس -دون توقيع- من داخل السودان. فحواها: اتق مصير المماليك، واللبيب بالإشارة يفهم. الإشارة هنا للغداء الذي أعده محمد علي للمماليك في القلعة بالقاهرة ثم أحاط بهم هناك وقتلهم عن آخرهم) وكان زملائي منقسمين حول ذهابي للسودان لمقابلة نميري ولكن بعد وصول تلك الرسالة اتفقوا على رفض السفر وكنت قد أعطيت كلمة فما العمل؟ رأيت أنه لا سبيل لحسم الأمر عن طريق البحث العقلي فاستخرت الله.. جاءني في المنام أن رأيت نفسي منتعلاً حذاء أخضر ناعمًا وماهلاً. إن لي في الرؤى رموزًا فإن رأيت نفسي منتعلا حذاء مريحا فهو رمز أمان وخير، وإن رأيت منتعلاً حذاء ضيقا فهو رمز شر آت لذلك قررت أن السفر آمن وسافرت وكان بالفعل آمنا.

بهذه المناسبة إن لي رؤية في الأحلام صقلتها تجربتي، فالأحلام بعضها رغبات وبعضها مخاوف، وبعضها نذر وبشائر.. إن بعض الرؤى التي رأيتها صادقة وقد تحققت فعلا، ولذلك فإن الرؤى تلعب دوراً في حياتي الروحية.

❖ مثلما أن النظم الاستبدادية تفكر في قتلي، فإنها أيضا تفكر باستمرار في تلفيق التهم ضدي لإيجاد وسائل لمحاكمتي، وقد تعرضت لطائفة من هذه التلفيقات الرخيصة. أولها كانت المكيدة التالية: بعد وقوع انقلاب ٢٥ مايو ١٩٦٩م وجدوا أن هناك بلاغًا بوجود مؤامرة عنصرية يقودها السيد فيليب عباس غبوش فرأت السلطات الجديدة أن تضيف اسمي للمؤامرة، واتهموني بأنني كنت على اتصال بالأمريكان وأننا خططنا لقتل السيد بابكر عوض الله، وقالوا: إنني حصلت على مسدس في شكل قلم لتنفيذ الاغتيال!! وبكل حماسة عقد فاروق حمد الله وزير الداخلية مؤتمرًا صحفيًا مذاعًا متلفزاً، وأعلن فيه تفاصيل المؤامرة وقدم معروضات تؤيد دوري في المؤامرة وحدد المواد لمحاكمتي، وأعلن الإدانة على الرأي العام السوداني ولكن الرأي العام السوداني استقبل إعلانهم بالسخرية والاستخفاف!! وبعد حين راجعوا أنفسهم وصرفوا النظر عن المحاكمة التمثيلية.

هذه طرفة من طرف ذلك العهد العجيب، ولكن بعد مرور سنوات أي: في عام ١٩٧٨م وبعد المصالحة كنت في لقاء مع نميري وأراد أن يحكي لي قصة تلك المؤامرة بصورة تثبت براءته وإدانة الآخرين قال لي (المؤامرة عليك دبرها الروس ووزير الداخلية فاروق، وأنا لم أكن أعرف الطرف الأجنبي إلا بعد أن كشفت على المسدس، فوجدت فيه قطعة خشبية من خشب لا ينمو إلا في سيبيريا، من ذلك استنتجت أن العنصر الأجنبي هم الروس!!) لا يفوت على فطنة القارئ أن وزير الداخلية لا يمكن أن يمضي في هذا الشأن إذا لم يوافق عليه رئيسه، وأن مسألة خشب سيبيريا هذه أضحوكة. فقلت له: لماذا لا تعلن هذه الحقائق للرأي العام؟ قال: سأفعل ولكن تمر على الثورات ظروف كهذه هي بعض ثمن الثورة!

إن جعفر نميري عندما يتحدث بالسليقة يقول أشياء غريبة نتركك متسائلاً:

أحقا هو يصدق هذه السخافات؟ أم أنه يستخف بعقل المستمع ؟ ففي ذات يوم اعتدى جماعة أيلول الأسود على ضيوف في السفارة السعودية في الخرطوم ١/ ٣/ ٧٣م وهناك قتلوا دبلوماسيين أمريكيًّا وبلجيكيًّا ونتيجة لذلك الحادث أعلن نميري حملة ضد المقاومة الفلسطينية، وقال: سأجعل أيامهم كلها سوداء لا أيلول وحده هذا ما أعلنه وذات يوم قابلت نميري فقال لي: (لقد كنت جادا عندما قلت: إننا سنجعل كل أيامهم سوداء ففي بيروت حيث يعيش عدد كبير من الفلسطينيين البوابون كلهم سودانيون، وسوف نسلطهم عليهم وسوف يجعلون أيامهم سوداء)!. صدق أو لا تصدق!!.. هذا المستوى من الفهم هو الذي جعل المستشار الألماني السابق هلمت شمت(١) يقول لي: أنا لا أستبعد وجود حكام عسكريين في بلاد العالم الثالث فهذه بعض مظاهر التخلف الاجتماعي، ولكن الذي أدهشني هو كيف وصل شخص بمثل قدرات نميري العقلية ليصبح الشخص الأول في أي نظام؟!!.

❖ في فبراير ١٩٨٩م انسحبت حامية ليريا من موقعها، واستغلت ٦٣ شاحنة جديدة، ووضعت عليها العتاد العسكري واتجهت نحو جوبا. هذا الانسحاب لم يكن له ما يبرره من الناحية العسكرية، فالحامية تقع في مكان يسهل الدفاع عنه، وكان العتاد العسكري الموجود كافيا للدفاع. ولكن ظروفا أخرى أضعفت الروح القتالية، فكان الانسحاب، ودعيت للقيادة العامة وفي غرفة العمليات قدم لنا ضباط من العمليات والاستخبارات تنويرًا لتفسير ما حدث في ليريا، وكان التنوير ينصب على أن السبب الأساسي للانسحاب هو قلة العتاد العسكري، وأشاروا لأثر المناخ الإعلامي في الخرطوم على روح الجنود المعنوية، وطالبوا بضبط الخط

(١) هلمت شمت (ولد٢٣ ديسمبر ١٩١٨م) Helmut Schmidt سياسي ورجل دولة ألماني عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي، شغل عدة وزارات، وكان المستشار لألمانيا الغربية في الفترة ١٩٧٢-١٩٨٤.

الإعلامي ومزيد من العتاد العسكري.

بعد الاستماع للتنوير قمت، وخاطبت المجتمعين قائلاً: هنالك رأي آخر أحب أن تسمعوه، فإما أن تردوا عليه ردا مقنعا، أو أن تقبلوه. إن الانسحاب من ليريا لم يكن بسبب قلة العتاد بل إن العتاد الموجود لا يستخدم بالكفاءة المطلوبة، وعددت عددا من المواقف التي شهدت تقهقرًا مماثلاً أو تصرفًا انهزاميًّا رغم وجود عتاد كاف على الأقل يفوق ما عند العدو. ذكرت ما حدث لسواء الردع، وللكتيبة ١١٨، ولمواقع أخرى، ثم قلت: إن ثمة ستة أسباب هي المسؤولة عن لأداء المتدني للقوات المسلحة هي:

- الاستخبارات مشغولة عن واجبها في معرفة أحوال، وتصرفات العدو بالأمن داخل القوات المسلحة وهي التي يجب أن تؤدي واجبها المطلوب قبل وقوع الحدث.
- التوجيه المعنوي لا يحدد قضية الحرب نفسها بالصورة المقنعة ويحشد لها التأييد.
- أسلوب القتال دفاعي مما يترك المبادرة للعدو في كل الأحوال.
- القيادة الميدانية ضعيفة، وكثير من القادة يرسلون عقابًا لهم لا؛ لأنهم الأنسب للمهام.
- الروح المعنوية متدنية جدًّا، ويصحبها شكوى عن مفاسد واشتغال بالتجارة والمنافع الشخصية.
- صحيح أن العتاد ليس موجودًا بالكميات المثالية، ولكن الموجود لا يستخدم بكفاءة.

بعد أن سمع الحاضرون هذه المآخذ وافقوا عليها، بل كان رئيس هيئة الأركان ونوابه حريصين على تأكيد توافر العتاد لدى الحامية، ثم قلت للحاضرين ما دامت

هذه المآخذ صحيحة: فإنني أرجو أن تجتمعوا في شكل قادة قيادات وتحددوا كيف يمكن علاجها فوافق المجتمعون على ذلك، ولكن عندما اجتمع القادة العسكريون وجه بعضهم الحديث بعيدا عن النقد الذاتي المطلوب، وفي اتجاه جعل الظروف السياسية كبش فداء.. هكذا حدث التحول المدهش من اجتماع مطالب أن يرد على مساءلات عسكرية اعترف القادة بها، إلى مساءلات سياسية لا يعرف كتابها أبعادها!. إن تجنب المساءلات العسكرية الحقيقية والتطلع لمساءلات سياسية فتح المجال للمغامرات العسكرية وبالفعل هذه الثغرة زائدا كيفية تنوير القيادات بالمذكرة التي كتبتها القوات المسلحة فتحت بابا دخل منه مدبرو انقلاب ٣٠ يونيو!!.

بعض المغرضين حاولوا أن يقولوا أنني اعطيت ضوءاً أخضر لانقلاب ٣٠ يونيو وأن تقارير وصلتني تجاهلتها لغيرتي من اتفاقية الميرغني / قرنق.

أولاً: يعلم جميع أعضاء حزبنا أنني كنت مؤيدا للاتفاقية ولكن طريقة إخراجها خلقت ردة فعل مضادة في أجهزتنا وكان واجبي أن أحتوي هذا وقد فعلت بعد حين. وكان السيد محمد عثمان الميرغني نفسه يعلم هذه التفاصيل. ويشهد على ذلك السيدان على حسن تاج الدين وأحمد سعد عمر.

ثانيًا: كنت أنا الخاسر الأول بحدوث الانقلاب، وكنت قد وفقت بين كافة التناقضات بموجب برنامج العقد الانتقالي الذي وقع عليه ٢٩ حزبا ونقابة وبموجب ذلك صارت الجمعية التأسيسية كلها مؤيدة لحكومتي ماعدا جماعة الجبهة الإسلامية القومية.

ثالثًا: لم يصلني أي تقرير من أية جهة باحتمال الانقلاب. ولكن مع ذلك اجتمعت بالقائد العام ورئيس هيئة الاركان وقلت لهما: إن مذكرة القوات المسلحة

وما صحبها من تنوير للقيادات فتحت الطريق لأية مغامرة عسكرية فماذا أعددتما لهذا الاحتمال؟ قالا لي: إذا تحركت نملة فنحن قادرون على ردعها. (الرجلان هما الفريقان فتحي أحمد علي، ومهدي بابو نمر). وطلبت من وزير الداخلية تقريرا أمنيا حول المذكرة وتداعياتها واحتمالات الانقلاب، ولكن التقرير الذي وصلني، والذي وجد طريقه مؤخرًا لأجهزة الإعلام باعتباره دليلاً على تنبيهي بالانقلاب، كان على عكس ذلك يؤكد خلو الساحة من أي تدبير انقلابي. صحيح أن بعض المتنفذين في السلطة وصلتهم معلومات تشكك حول انقلاب يخطط له، وللأسف علمت من المرحوم صلاح عبد السلام[1] مؤخرًا جدًّا أنه استلم تلك المعلومات ووجهها للأجهزة المعنية في الجيش وفي وزارة الداخلية للتحقق منها، ولم يشأ أن يزعجني بها على حد تعبيره.

رابعًا: الانقلاب عندما وقع جعلني هدفه السياسي الأول حتى قبل استهدافه للديمقراطية ودبج ضدي ماشاء من لاتهامات وعاملني أسوأ معاملة وبدأ بي بيوت الأشباح.

خامسًا: استطاع النظام حتى الآن -بصورة أو أخرى- أن يطوع بدرجات متفاوتة كافة القوى السياسية إلا حزبنا!.

كل هذا يرد على هذه التهم الباطلة، ولكنه لا ينفي أن يكون التعامل غير السوي داخل القوات المسلحة مع المسئولية العسكرية، وإقحام المسألة السياسية فيها كان خطأ دفعت قيادة الجيش نفسها ثمنه، ودفع غيرها أثمان باهظة بل كل الشعب

(١) صلاح عبد السلام الخليفة (ت ٢٧/ ٧/ ٢٠٠٦م) ولد بمدني ودرس الثانوي بمدرسة حنتوب الثانوية، ثم التحق بالكلية الحربية (الدفعة ٢) وتخرج ضابطًا بالقوات المسلحة، بعد تقاعده التحق بالعمل السياسي داخل حزب الأمة واعتقل في السجون المايوية، والإنقاذية، تولى منصب وزير شئون الرئاسة في الديمقراطية الثالثة، دفن بقبة الإمام المهدي بأم درمان.

السوداني وبلادنا أجمع تعاني من المصيبة التي نفذت من تلك الثغرة.

❖ في عهد الديمقراطية كان الأخ أبو حريرة قد رفع قضية ضد جريدة «السياسة» وصاحبها خالد فرح، وعندما عقدت المحكمة للنظر في القضية كان انقلاب ٣٠ يونيو قد أسقط النظام الديمقراطي وأقام نظاما بديلا، وكان الأخ خالد فرح قد طلبني شاهد دفاع دون أن يخبرني وكنت في السجن، وكانت سلطات النظام الانقلابي الجديد تريد أن تتخذ من المحاكمة وسيلة لمراشقة رجال النظام الديمقراطي، فوافقوا على ذهابي للمحكمة للشهادة وأعد المسرح في محكمة الخرطوم بحري لمواجهة كلامية بيني وبين الأخ أبو حريرة.

❖ كنت قد هيأت نفسي للاعتذار عن الإدلاء بأية شهادة، ولكن قبل أن أقول شيئا قام الأخ محمد أبو حريرة وقال: لقد تغيرت الظروف التي قدمت فيها بلاغي، ولذا فأنا أسحب الدعوي من أساسها.. هكذا استغني عن الشهادة وفاتت الفرصة التي كان الانقلابيون يطمعون فيها.

❖ الشعب السوداني شعب متسامح، وأقرب إلى التعايش السلمي بين الملل والنحل المختلفة، لعل طريقة انتشار الإسلام سلميًا في السودان ساهمت في خلق هذا المزاج، ولعل وجود حضارة عريقة في بلاد النوبة أورثتنا هذا المزاج، ولعل كثرة المجاملات الاجتماعية في الأفراح والمآتم من آثار هذا التسامح والتعايش، ثم صارت من وسائل الحفاظ عليهما.

لقد كان أصحاب الاتجاهات الفكرية ذات الفروع في السودان وفي غيره يلاحظون وبعضهم علق لي أنهم يلمسون ترخصا في آراء وتصرفات رصفائهم من السودانيين لا يرضونه.. هكذا كان يعلق إسلاميون، واشتراكيون، وقوميون، عرب على رصفائهم من السودانيين. وذات مرة في عام ١٩٥٩م كنت في رحلة بالقطار من

لندن إلى أكسفورد، وصادف أن ركب معي طالب إنجليزي هو سكرتير الحزب الشيوعي في جامعة أكسفورد، وفي الطريق تبادلنا أطراف الحديث فقال لي: أنا أعرف كثيرًا من الشيوعيين السودانيين ولكنني لا أعتقد أن السوداني يمكن أن يكون شيوعيا جيدًا؛ لأن السودانيين غير غاضبين بالدرجة الكافية. وفي سلوكهم مقدار من التبسط لا يتماشى مع الفكرة الثورية الجذرية التي يدعو لها حزبنا!!.

وبهذه المناسبة فقد كنت في رحلة لبيروت في عام ١٩٦٨م، وفي الطائرة كان معي عبد الرحمن الوسيلة - أحد الشيوعيين السودانيين البارزين - ونزلنا معا لمطار بيروت. وفي المطار قابلني عدد من الصحفيين وكان أحدهم من الشيوعيين اللبنانيين البارزين وسألني الصحفيون عن بعض أحوال السودان وأجبتهم، ولكن الصحفي الشيوعي أراد إحراجي فسألني سؤالاً هجوميًّا عن الرجعية السودانية وخدمتها للاستعمار..إلخ. فأدهشني أن أجد عبد الرحمن الوسيلة يتصدى له بهجوم مضاد ويؤاخذه على أسلوبه السمح الذي من شأنه أن يخرب علاقات القوى السياسية السودانية!!. وكان الصحفي اللبناني يعرف من هو الوسيلة، فأفحمته الدهشة!.

كاركاتير عمرو فهمي من كتابه ضحكات غاضبة